

مجلة علمية ثقافية ، جامعة ، فصلية

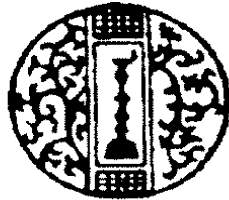
# ثقافة الهند

المجلد ٥٣ العدد ١

٢٠٠٢م

رئيس التحرير

س ضياء الحسن الندوي



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

ازاد بهاون، نيو دلهي

الهند

## محتويات العدد

٧٤-٦٦ (٧) الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

أ.د. محمد راشد الندوي

## الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

بقلم: أ.د. محمد راشد الندوي      تعريب : إحسان الله خان الندوي

إن عظمة أي بلد من البلدان لا تتجلى جلالته و بهاءه إلا أن يتمتع بالوسائل الطبيعية كالأنهار الجارية و الشلالات المتفجرة و الينابيع المتدفقة و الجبال الشامخة المتلونة و معادن الذهب و الفضة و آبار النفط و البترول، هذه الأشياء هي التي تضمن تطور كل بلد و وجوده و بقاءه و إذا رأينا من هذه الناحية وجدنا أن الله تبارك و تعالى قد أغدق على الهند هذه النعم كلها، فأصبحت الهند تعد من البلاد الكبرى في العالم من هذه الناحية و لكن هذه الوسائل مهما تكثرت و تزداد في عددها و جودها لا يمكن الاستفادة منها و الاستماع بها إلا أن تكون العلوم و الفنون متقدمة فيها، هذه الوسائل تزيد في الحسن و الجمال و البهاء، و إذا عرض الإنسان عن هذه العلوم و الفنون فلا تفيد هذه الوسائل الفطرية و النعم الإلهية شيئا، بل الإنسان لا يمكن له أن يصل إليها، بل و هي ستكون خافية مدفونة في بطن الأرض.

الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

وكانت الهند مهدا للحضارة و الثقافة منذ زمن قديم و تتضح أهمية تاريخها الحضاري و الثقافي بأنها لفتت أنظار علماء التاريخ و الجغرافيا من عهد قديم و كل من ورد إليها جذبته أرضها الجميلة فتوطن فيها فوجد بيئتها ملائمة له فانصهر فيها، فالذين و ردوا إليها كانوا يحملون ثقافة متنوعة و أحاسيس الحب و المودة و التلاعم فيما بينهم، كانت من ميزة سكان الهند أنهم رحبوا كل من جاءوا إليها ترحيبا حارا و استفادوا بهم في حقل العلم و الفن و الثقافة و وهبوا لهم ما كان لديهم من العلم و العرفان، فبدأ من هذا الجو عهد جميل للتبادل الثقافي و الحضاري فما زال تصل إلى الهند أشعة العلوم و الفنون من مختلف الجهات فأشرق كل بقعة فيها.

إن التطورات التي نبحث عن التبادل الثقافي و الاحتكاك العلمي أوجدت من النواذر القيمة فقدمها أهل العلم في الهند إلى العالم مع ثقة كاملة و نالت هذه النواذر من الإعجاب و القبول و حصلت لها مكانة مرموقة و كانت هذه النواذر مادية و معنوية و إن الحالة الثقافية التي كانت عليها الهند هي كانت حالة المسلمين بين الأمم الأخرى، إن الأمم و الأقوام لما اعتنقوا الإسلام حملوا الخير و البركة و أشعلوا مشاعل الرشد و الهداية و العلم و المعرفة في كل ناحية من نواحي العالم و إذا نرى فتوح المسلمين ونشاطهم في سبيل الدعوة ظهر لنا أن غايتهم كانت هي أن يعرفوا من نعم الهداية و العلم و المعرفة و إن المشاكل و المتاعب يلاقونها في سبيل هداية الناس و نشر الثقافة الإسلامية نوعا من الراحة و هدوء البال و دخل المسلمون الهند مع الهمة العالية و الهدف الاسنى و كان فيهم العلماء و الأتقياء و السلاطين و البارعون في الحرفة و الصناعة و التجار فأعطى كل منهم حسب سعته و علمه للهند من الحسن و الجمال و الثقافة و المعرفة.

## ثقافة الهند

لنعرف هذه التفاصيل و نعلم متى دخل المسلمون في الهند؟ و من كانوا في ركبهم؟ و ما هي مآثرهم؟ و كيف أفادوا الهند و أهلها؟ نجد جميع هذه التفاصيل في كتب الآداب و التاريخ و من هذه الكتب كتاب معروف للعلامة عبد الحى الحسني المشهور بنزهة الخواطر، إن هذا الكتاب يقدم صورة رائعة لأعلام الهند و أعيانها و مشاهيرها و إن العلامة الحسني بذل جهودا كثيرة في تأليف هذا الكتاب و إن القاري سيرى أنه رداء حريري مطرز بالجواهر و اللالي يتلألأ في النهار و الليل سواء و يبهج القلب و النظر إذ رآه الناظر من أي ناحية و يشتمل هذا الكتاب على أعلام العلم و المعرفة و السلاطين من سبعة أو ثمانية قرون و إنه يحمل أسلوبا جذابا و عبارة رائعة يجذب القاري إلى أن يدرسه مرة بعد مرة و يبدو جماله و روعته عقب كل دراسة و مطالعة، إنني أرى أنه من ميزة كتابة التاريخ و السيرة أن يقدم الكاتب رجال التاريخ و السيرة و مآثرهم حتى تتجلى حياتهم و نواحيها الظاهرة و الباطنة أمام الأعين و تتلألأ مكانتهم الممتازة و نستطيع أن نقول إن ميزة كتابة السيرة أن لا تختلط شخصية بشخصية أخرى و تمثل بباقة الزهور تتزين بأزهار مختلفة ألوانها و رائحتها من أية ناحية تبدو مكانتها و تظهر زاهية متفتحة فإذا رأينا هذا الكتاب من هذه الناحية نجد أنه يبلغ إلى درجات الكمال، إن المؤلف سجل أحوال أعلام الهند حيث يتضح كل ما مضى عليهم من الوقائع و رتب تاريخ هذه القرون الثمانية كأنه تاريخ العلم و المعرفة و كان نجوم العلم و الفن تطلع في سماء الهند و لا تنتهي هذه الدائرة بل إنها كالبحر تصطدم أمواجهها فيما بينها واحدة فواحدة و تغنى و لكن لا تخلو دقيقة من هذا الاصطدام.

الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

عندما ندرس أحوال الأعلام الذين ذكرهم العلامة عبد الحى الحسنى و مآثرهم في هذا الكتاب نطلع على أحوالهم الشخصية مع الوقوف على المجتمع الهندي و الذي كان السائد فيه إن عامة الناس سجدوا أمام العلماء و الصوفية حينما روا كما لهم و تبجرهم في العلم و الفن و جعلوا يعتقدون فيهم الربوبية و كذلك اثر العلماء و الأتقياء الهنود لمستوطنات كبيرة لهم و جعلوها مركز العلم و الثقافة.

قام العلامة بدراسة الأمراء و السلاطين و الحكام تشتمل حوالي سبعة قرون و بين مكانة كل سلطان بدقة و أمانة لما كان لهم أهمية في أحوالها المالية و العسكرية و السياسة تبدو فيها مهارة فائقة و معرفة واسعة و ذكر الحروب الأهلية فيما بين الأمراء و السلاطين و ما أدت إلى خسائر وخيمة مفصلا و بحث أيضا من أسباب الحروب الأهلية و قال إن أكثرها كانت تحت إرادة السلطة و هوى الإمارة فيحمل القوى على الضعيف بلا هوادة و رحمة و إهمال عن القانون و الدستور و يقيم سلطته، ذكر العلامة من أسباب ضعف سلاطين المسلمين و تقصيرا تهم مع ذكر محاسنهم و مكارمهم و يرى من صفة هؤلاء السلاطين المسلمين و ميزتهم الخاصة أنهم كانوا يقدرون مجهودات العلماء و الباحثين و يشرفون على جمعها و تدوينها فلذلك اجتمع حولهم عدد كبير من العلماء و الأدباء و الشعراء و الكتاب و البارعين في علم النجوم و جعل ينمو و يزدهر جو ديني ثقافي رائع و إذا رأى أحد من مآثر السلاطين في الهند و خدماتهم الجليلة يطمئن إلى هذه الخدمات العظيمة لا تقل عن خدمات الخلفاء في الأندلس و بغداد بل يفوق السلاطين في الهند على غيرهم في إقامة الكتاتيب و المدارس و يليق بالذكر ههنا أن اللغة العربية ما كانت لغة رسمية في أي عصر و لكن

## ثقافة الهند

علماءها ألفوا و صنعوا من الكتب على موضوعات مختلفة في العلوم والفنون و كانت هذه المؤلفات تحت رعاية السلاطين و الأمراء و كانت أكثرها باللغة العربية.

و الجدير بالذكر أن المؤلف يوفر موادا ضخمة و معلومات جمة حول معاملة الملوك المسلمين مع عامة الناس من المسلمين و الهنالك. إنهم ما كانوا يفرقون بين الناس بل كانوا يعطون كل ذي حق حقه مسلما كان أو هندوكيا فالسياسة الحكمية و العدالة العامة كانت دينهم و دينهم و المؤلف يذكر بكل جرأة التعديات و المظالم التي لحقت الهنالك في حكومة أي ملك أو أمير في الهند و لكن تعقب بعد ذكر مثل هذه الحوادث بأن هذه التعديات و المظالم لم تحدث برغبة دينية بل هي كانت أعمالا شخصية خالصة ارتكبها هؤلاء الملوك فنكرها عامة الناس و حين تغيرت الأحوال و تمكن سلطان آخر على كرسي السلطة فيقوم بخطوات مؤثرة لدفع الأخطار و التعديات السالفة، في الكتاب أمثلة كثيرة لمثل هذه الأشياء.

و ذكر المؤلف في كتابه عن الملك العادل سلطان العابدين قطب الدين من كشمير أنه أخذ عنان الحكومة في يده بعد أخيه فازدادت في سعة حكومته حتى صارت تبت من جزء كشمير و مع ذلك قام الملك بالقضاء على التعديات التي وقعت في عهد أخيه فأطلق الذين كانوا أسارى في السجون بغير إجرام و من الذين تركوا كشمير لجور السلاطين دعاهم إلى كشمير و رخص لهم أن يعيشوا مع تقاليدهم الاجتماعية و طقوسهم الدينية و الثقافية مرة أخرى حتى رخص للنساء أن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن لأن هذا التقليد كان يوافق مع عقيدتهم و ديانتهم بل سامح عن الجزية التي كانت تجبي من غير المسلمين و منع ذبح البقرة في كشمير لتأليف قلوبهم.

الهند في ضوء الكتاب الشهير "نزهة الخواطر"

فخلاصة القول أنه قضى على جميع التعدييات التي تسببت الخوف و الروع و بدلها من الهدوء و الطمأنية لأن هذه المخافة بلغت إلى أن غيرت العامة ديانتها بالخوف و الروع فأعلن هذا الملك العادل "لا إكراه في الدين" لكل الخيار لأخذ الدين " لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" الآية. فيكتب جميع المؤرخين بالإجماع أنه ملك عادل يرعى الرعية حق الرعاية و عبروا عن عهده عهد العدل و القسط.

وفي عهد سلطة المسلمين في الهند نقلت النصوص المهمة من اللغات المحلية إلى اللغة العربية كذلك ترجمت كتب من اللغة العربية إلى اللغات المحلية الهندية و قد ازدادت ثقة الهنود بما كان يعمل السلاطين بهم و ازدادت همتهم حصول العلم و المعرفة و اتضح لهم أيضا أن السلاطين المسلمين هم أمناء القيم الاجتماعية و الدينية و مقدرون الجهود العلمية و التطورات الفنية فتعاونوا مع السلاطين بثقة كاملة و عزم راسخ و قدم العلماء الهندوس من معلومات واسعة عن حياتهم الاجتماعية و النظم العائلية فلو جمعت كل ما كتب الباحثون المسلمون و العلماء عن المجتمع الهندي تتضح صورة كاملة للمجتمع القديم.

هذه صورة مجملية عن السلاطين المسلمين إنهم كانوا مشغولين بتوسيع سلطتهم و أعرضوا عن أصول الشريعة الإسلامية لأغراضهم الشخصية فيتجلى لنا بعد دراسة كتاب "نزهة الخواطر" أنه لا يطلق على جميع السلاطين لأن بعضهم قاموا بتنفيذ الشريعة الإسلامية و أهدقوا على العلماء و الفقهاء و شجعهم لتأليف الفتاوى و وضع القانون و جرى هذا العمل في مختلف مراحل التاريخ في الهند و في أمكنة مختلفة و في مختلف الألسنة و من محاسن هذه القوانين و الفتاوى أنها تراعى للأوضاع الراهنة



## ثقافة الهند

و الظروف الموجودة و يفرق عند الاحتياجات فلو رتبت جميع هذه المساعي الفقهية بطريقة لائقة تكون مؤلفة علمية وفقهية قيمة.

و ألقى العلامة الضوء في كتابه على النساء البارعات في العلم والدين و السياسة و دورهن و مآثرهن و يفيد الكتاب أيضا أن السلاطين المسلمين شجعوا هؤلاء النساء بلا تفريق في الدين و أعطوهن مكانة مرموقة بعملهن في المجالات العلمية و الخبرة السياسية فكانت كلمة هؤلاء النساء مسموعة مقبولة في إدارة الأمور السياسية و غيرها. من هؤلاء النساء البارعات جهان اراء بيكم و كلبدن بيكم و جانان بيكم و النساء الأخريات و بعض النساء كانت تتعلق بالأسرة المالكة و بعضها بالأسرة العامة فذكر العلامة من نواب شاهجهان بيكم و سلطان جهان بيكم لولاية بوفال و بصيرتهما العلمية و السياسية و الذوق الأدبي و حبهما العلمي والإشراق على العلماء كلها من التفاصيل بأسلوب جميل و يبطل هذا الاعتقاد عقب دراسة سير النساء إن الإسلام قام بإضاعة الحقوق النسائية في كل عصر و حرمهن عن مكانتهن الأصلية ولم يقدر مؤهلاتهن العلمية والأدبية و السياسية، هذه الحقيقة تتضح لنا خلال الكتاب أن المسلمين اعترفوا أهمية النساء و جعلوا مكانة لهن حسب مؤهلاتهن و تعاونت النساء في بناء المجتمع مع الرجال جنباً لجنب و ازينت الأمة الإسلامية بالتعاون المتبادل.

ذكر العلامة في كتابه من العلماء و الأتقياء و الشعراء و الأدباء مفصلاً و عرف كل واحد منهم و الأساتذة الأجلة و المدارس و النشاطات العلمية في الشباب و بعده و صرح في سيرة بعضهم، أنهم كانوا يتعلقون ببلاد أخرى و لكن هاجر إلى الهند حسب وطأة الظروف و الاحتياجات

الطبيعية و جاءوا بذخيرة من العلم و الآداب و أينما وصلوا و حيثما حلوا في بلاد الهند أفادوا بعلومهم و فنونهم و استفادوا أيضا حسب احتياجاتهم وليس الأمر بسهل أن يهجر رجل وطنه المألوف و يسكن في بلد آخر ويستفيد من العلم و الفن أنه يجب عليه أن يكون لديه حظ أوفر من العزيمة الهمة و قد كان العلماء يحملون هذه الأوصاف الحميدة.

و يمتاز العلماء في الهند أنهم بذلوا جهودا في سبيل العلم و التدريس و قد ذكر المؤلف في كتابه "نزهة الخواطر" من العلماء الذين سافروا إلى أماكن بعيدة لحصول العلم و لقوا مع أهل العلم و حصلوا على الشهادات و درسوا كتباً أساسية على الشيخ درسا درسا و شغلوا في تأدية فريضة التدريس في ناحية من البلاد و بعد ما حصلت لهم الإجازة من شيوخهم و أساتذتهم فتأسست المراكز العلمية و المدارس الدينية في كل مكان و كانت المقررات الدراسية في هذه المدارس من اقتراحات هؤلاء العلماء و من كتاباتهم و كان هؤلاء العلماء قادرين على الأذواق النقية و التعبير عما في صدورهم فيولفون الكتب المفيدة حسبما تتقاضى الأحوال و الظروف و إنها تعتبر إضافة كبيرة في كتب العربية و تعترف أهميتها.

في الأخير نستطيع القول بأن هذه الحقائق المذكورة في "نزهة الخواطر" مصدر تاريخي هام في حقل نظام التعليم و التربية و لذلك حين رأى العلامة مناظر حسن الكيلاني الأجزاء من هذا الكتاب المخطوط اعجب بالكتاب لكثرة المعلومات و طريقة البيان و العبارة و صداقة القول و عبر عن أحاسيسه و انطباعاته في رسالة أرسلها إلى ابن المؤلف الكريم فضيلة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله، و تتجلى أهمية الكتاب عن كل كلمة من الرسالة. هذه حقيقة أن من ينظر هذا الكتاب نظرة

## ثقافة الهند

عميقة يضطر باعتراف أهمية هذا الكتاب بأنه من أهم مصادر للمعلومات الثقافية و العلمية و الاجتماعية و السياسية و لو كان من أهل الهند سينشد بلا تردد هذا البيت لجرير :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجمع

ويقدر بعد دراسة أحوال هؤلاء العلماء و الأتقياء يظهر أنه لا توجد قرية أو مدينة إلا فيه عدد كبير من العلماء و الأتقياء و الصالحين و المبلغين مدفونين و يصدق ما قال لسان الدين الخطيب في تاريخ غرناطة و الجبرتي في تاريخ مصر و صرحا بالافتخار و المباهاة كان يوجد في أطراف جميع هذه البلاد و نواحيها عدد كبير من العلماء و الأدباء و هم يستريحون تحت ثراها و يخطر ببالي مثل هذه الخاطرة عقب دراسة نزهة الخواطر و لعل هذه الانطباعات خطرت على بال الشاعر العباسي أبي العلاء المعري،  
فانشد:

خفف الوطأ ما أظن

أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

و حرام بنا قدم العهد

هو إن الأباء و الأجساد